الفصل الثانى عشر

القرن التاسع عشر جنوبي أفريقيا

قبل هجوم الاستعمار عام ١٨٩٠، كان الأوروبيون قد شقوا طريقهم إلى جنوبي أفريقيا فبدأوا من مدينة رأس الرجاء الصالح واتجهوا شمالًا وشرقًا حتى وصلوا إلى سهول لمبوبو في سنة ١٨٨٠ على مسافة أكثر من ألف ميل من رأس الرجاء الصالح. وقام ليفنجستون برحلته المثيرة عام ١٨٣٥– ١٨٣٦ التي كانت نتائجها فعلية على قبائل باتنو وأواسط أفريقيا والمناطق البرتغالية التي أقيمت في أنجولا وموزمبيق من مدة طويلة.

عندما أنشأت شركة الهند الشركة الهولندية محطة التموين الخاصة بها في رأس الرجاء عام ١٦٥٢ كانت آخر شيء تفكر فيه الارتباط بداخل أفريقيا، لكن لتحقيق أمنها وسلامتها وتوفير المواد التموينية لبواخرها بأرخص الأسعار، وجدت الشركة أنه من المصلحة جذب المستعمرين إلى رأس الرجاء وأقبل المهاجرون والمستعمرون ثم توقفت حركة الهجرة نتيجة للقيود التي فرضتها الشركة. ومع القرن الثامن عشر، ازداد عدد الأوروبيين المقيمين في رأس الرجاء فبدأ البعض يهاجر إلى الداخل سعيًا وراء الرزق بعيدًا عن سيطرة الشركة.

ولما كانت الأراضي صالحة للزراعة هاجر إليها البوير وهم المزارعون الأوروبيون الذين لُقبوا بالأفريكانرز وكانوا يميزون أنفسهم عن المواطنين

أصحاب البلاد، كما يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار وأن الوطنيين ليس لهم حقوق ويجب ألا يمتلكوا الأرض.

ثم اتجه هؤلاء البيض صوب الشرق بدلًا من الشمال حتى ناتال حيث الأمطار أشد وكانوا في طريقهم يقتلون المواطنين وقد أبادوا قبائل الهوتنتوت والبوشمن[٢]، وما إن حل عام ١٧٧٩ حتى استولى البيض على الأراضي.

ونتج عن ذلك حرب الكافرين[٣] وأصل الكلمة العربية (كافر)؛ حيث نقلها البرتغاليون من الساحل الشرقي وكان العرب يطلقونها على قبائل الباتنو. وخلال الفترة من عام ١٧٩٣ إلى ١٨١٥، قامت الحروب بين بريطانيا وفرنسا وانتقلت السلطة في رأس الرجاء من الهولنديين إلى البريطانيين. وقد وجدت بريطانيا في رأس الرجاء موقعًا استراتيجيًّا ممتازًا يتحكم في مدخل المحيط الهندي، كما سيطرت على الحدود أكثر مما كانت تسيطر عليها الشركة في سنواتها الأخيرة.

وفي سنة ١٨٢٠، وزعت بريطانيا حوالي خمسة آلاف شخص– جنود سابقين وعائلاتهم– على الحدود بقصد تقوية الحدود وكانت أهم النتائج التي ترتبت على حرب البربر (المزارعين) مع البانتو أن نزح هؤلاء عن أخصب أرض في المنطقة على الساحل الشرقي.

---

(٢) أقدم القبائل الإفريقية التي استوطنت جنوبي إفريقية وهذه القبائل في طريقها إلى الانقراض بسبب المذابح التي قام بها الأوروبيون.

(٣) الكلمة نفسها أطلقها سكان شرقي السودان من قبائل البيجة على البريطانيين في أثناء فتحهم للسودان.

ومع بداية القرن التاسع عشر شنَّت قبائل الزولو حربًا لا هوادة فيها ولا رحمة وكان زعيمهم (شاكا) قد نظم جيشًا من الشباب ليعملوا كمحاربين فقط ولا عمل لهم غير ذلك، وكانوا نظاميين يحاربون في تشكيلات وأصبحت الزولو دولة عسكرية معتدية (في نظر المستعمر) ثم قتل شاكا بوساطة أخ غير شقيق سنة ١٨٢٨ وتولى بعده أخوه دنجين الذي أثبت أنه لا يقل ضراوة وقوة عن سلفه وأصبحت تحيط بأرض الزولو وخاصة من جهة الجنوب أرض حرام لا يقيم فيها أحد وتحولت إلى مراع لهم.

ومنذ عام ١٨٢٥ اتخذت الإدارة البريطانية لنفسها طابعًا آخر؛ فقد اتخذت الخطوات التي تكفل إخضاع المواطنين للقانون وأخذت تقلل من الطابع العسكري. استحدثت بعض مبادئ ديمقراطية ولم يؤثر إلغاء الرق في مزارعي جنوب أفريقيا لوجود ما يقرب من عشرين ألفًا من الوطنيين يعملون في المزارع. ثم اتخذ قراران في لندن. ففي عام ١٨٣٤، أصدرت وزارة المستعمرات قانونًا خفف من قيود القانون الذي يحمي غير الأوروبيين. وفي سنة ١٨٣٦، صدر قانون آخر بإعادة جزء من أراضي الحدود الشرقية إلى قبائل الباتنو.

ونظرًا لمقاومة قبائل البانتو المستمرة فقد أُقيمت حكومات مركزية؛ وبذلك اندمج المستوطنون في جمهوريتين: الجمهورية الأفريقية (الترانسفال) والتي تقع بين فال ولمبوبو وكذلك جمهورية أورانج الحرة بين نهر أورانج وفال، واعترفت بريطانيا بهاتين الدولتين في عام ١٨٥٢ وعام ١٨٥٤ على أنهما لا يثيران المشكلات مع البانتو، وإلا تعرضت مصالح بريطانيا

للخطر وحقق رأس الرجاء الصالح رخاء وذلك بمنتجات المزارع الرخيصة وأمكن تسويقها في الوقت الذي كانت تشكو فيه الترنسفال وأورانج من الضيق المالي، فكان تعداد الأولى حتى (سنة ١٨٧٠) ٤٠ ألف نسمة في حين أن تعداد أورانج ٣٠ ألفًا. ومن الطبيعي لا يستطيع هذا العدد أن ينافس رأس الرجاء الذي بلغ تعداد سكانه ٢٥٠ ألف نسمة.

وفي النهاية وجد المسؤولون البريطانيون أن وجود دويلات مستقلة في جنوبي أفريقيا من شأنه أن يضعف المنطقة ويثير بعض المشكلات، وعليه أعلن أن جنوبي أفريقيا دولة واحدة. وبذلك وجدت قبائل الباتنو نفسها منعزلة ولم تجد حلًّا سوى الاندماج مع طائفة العمال في المجموعات الأوروبية. ثم أُقيم بعد ذلك اتحاد فيدرالي يتولى الحكم فيه حكومة محلية يعاونها برلمان ينتخب من البيض والسود ليحلوا مشاكلهم داخله ولكن لم تنجح هذه الفكرة النموذجية؛ لأن الحكام لا يريدون رؤية ثروات البلاد توزع على مجموعات متأخرة أو يشترك فيها المواطنون الأفريقيون. كما أنهم لا يريدون للرقي الجنسي الخاص بهم أن يختل توازنه بالسماح للأفريقيين السود بدخول ناتال أو اجتياز الحدود والاختلاط بالبيض.